نظام التبادل عند بعض القبائل البدائية
قراءة في الإرث الأنتروبولوجي

زهرة عباس

طالبة دراسات عليا، كلية العلوم الاجتماعية، مستغانم–الجزائر.

مقدمـــــــة

إن كل نظام اجتماعي هو جزء من وحدة متناسقة، ولا يمكن فهم هذا النظام إلا إذا درس في ضوء علاقته بالكل، وبذلك يكون على الباحث– من وجهة النظر الوظيفية– أن يأخذ في الحسبان عاملين أساسيين يلعبان دورا تبادليا وفاعلا في هذا النظام الاجتماعي أو ذاك، وهما: النموذج الذي يعرفه الأفراد ويؤثر في سلوكهم من جهة، والثقافة التي ينشئون عليها والتي تعنى بتلبية الحاجات الكلية للمجتمع من جهة أخرى، وذلك لأن الأنظمة الاجتماعية لا يمكن أن تؤدي وظيفتها إلا كجزء من المجموع الكلي للثقافة.

فقد كانت المجتمعات البدائية تعتمد في اقتصادها على الإنتاج والاستهلاك، سواء في الأسرة أو القبيلة مما يحقق الاكتفاء الذاتي حيث كانت تسد معظم حاجياتها بفضل التبادل مع الجماعات الأخرى، وتتميز هذه القبائل البدائية بنظام اقتصادي يعرف بتبادل الهدايا و المقايضة، وهو ما التمسناه عند قراءتنا للإرث الأنتروبولوجي من خلال ما توصل إليه الإثنوغرافيين عند دراستهم لمجموعة من القبائل البدائية.

قبائل جزر محيط الهادي و شمال الغرب الأمريكي

بولينيزيا وميلانيزيا وهما قبائل تسكن جزر المحيط الهادي إضافة إلى قبائل شمال الغرب الأمريكي، قام بدراستها مارسيل موس[*] من خلال معايشته لهذه القبائل مع بعض الأدلة المكملة من الآداب الرومانية المبكرة والهندوسية والجرمانية، وكان هدفه دراسة الشكل القديم للتبادل والتزاماته الثلاثة (العطاء، القبول، ورد العطاء)،

وكان سؤال البداية التي انطلق منه هو: لماذا يكون الرد على الهدية بالهدية ملزما رغم أن العملية برمتها، تبدو في الظاهر على الأقل قائمة على المجانية وحرية قبولها أو الرد عليها؟ وكشف عن نظام **البوتلاتش** الذي يرتكز في أساسه على أن يقوم الشخص من ذوي المكانة والمركز الاجتماعي في هذه القبائل بتوزيع نوع معين من الأغطية الصوفية على الضيوف في حفل رسمي كبير، وبعد فترة من الزمن يرد الضيوف هذه الأغطية في حفل رسمي كبير أيضاً بعد مضاعفة ما أخذوه منه في الأصل.[1]

وهذا التبادل الذي يتم بين أفراد المجموعة تصاحبه دائماً بعض الطقوس والشعائر، وتعمل هذه الأخيرة على حفظ حقوق أطراف

العلاقة في الأخذ والرد، ولذلك فإنها تحقق الاستقرار الاجتماعي وتدعم أواصر العلاقات بين القبائل. "ويلجأ الأفراد في حفل كبير إلى إحراق هذه الأغطية ذات القيمة الاجتماعية العالية وبعض ممتلكاتهم ليظهروا ترفعهم عن الأشياء المادية ويدعون غيرهم من الأشخاص الذي يحضرون حفل البوتلاتش إلى مجاراتهم، فكلما أحرق أو أتلف الشخص هذه السلع المادية كلما دع ذلك إلى اكتساب المزيد من الشرف والمكانة الاجتماعية المرموقة. يعتبر نظام البوتلاتش أقدم النظم الاقتصادية في المقايضة والتبادل والتجارة، ويتضمن عنصرين هامين هما القرض والكرامة، والظاهر أن تبادل الهدايا يتم بشكل إرادي إلا أنه يحوي صفة الإلزامية فيه، فمن وجهة نظر **موس** فالأفراد الذين يشتركون فعلا في عملية التبادل يمثلون القوانين الأخلاقية للجماعة، وفي نفس الوقت تقوي وتعزز هذه القواعد والقوانين." [2]

تكشف ظاهرة تبادل الهدايا حسب موس، بوصفها "**ظاهرة اجتماعية كلية**" وتدرس بشموليتها ومجمل أنساقها، أي بأبعادها الدينية والقانونية والأخلاقية والاقتصادية، السياسية والمورفولوجية، الجمالية والأسطورية، كما أن الالتزامات المتضمنة المذكورة آنفا يتم التعبير عنها رمزيا مع إعطاء أهمية للموضوع المتبادل. كما يؤكد على أن الموضوعات المتبادلة لا تنفصل كليا عن البشر الذين يقومون بتبادلها، مما يؤسس لمجتمع مشترك وأحلاف متينة يصعب حلها، وهذا ما هو إلا تعبير مباشر لتجنب الصراع المستمر وبالتالي التحالف والتضامن والسلم. [3]

وهكذا يتضح لنا مما تقدم أن مارسيل موس حاول أن يدرس التبادل بوصفه أساس الروابط الاجتماعية، ومعرفة أشكاله وتطوراته وما يتعلق به من أخلاق وقين وقوانين ورموز، كما لم يمنح التجريد النظري أهمية تذكر بالمقارنة مع اهتمامه وتقديره للوقائع الاجتماعية الحية والمعاشة في الواقع اليومي.

إذا كان المفكر الفرنسي قد نجح في تفسير الأسباب الداعية إلى تقديم الهبات، فإنه لم يكن مقنعا في توضيح دواعي إعادتها وهذه النقطة التي أثارها تلميذه كلود ليفي شتراوس، حيث يرى موس أن للأشياء الموهوبة روح تدفعا للعودة إلى مالكها الأصلي، وتحدث عن مفهومين هما "هاو" و"مانا" تمثلان روح الأشياء استقاهما من الحكيم تماتي رانايبيري الذي ينتمي إلى شعب الماوري (السكان القدامى لنيوزيلندا)، "فالهاو" يسعى إلى العودة إلى مكان ولادته في الغابة والعشيرة ولدى مالكه على وجه الخصوص، ولهذا الهبات في البوتلاتش تتحرك بشكل دائري لتعود إلى نقطة بدايتها[4].

فالملفت أن موس اكتفى بنقل تصورات الأفراد الممارسين لهذا النوع من التبادل وتفسيرهم حول عودة الشيء المهدى إلى مالكه الأصلي، ولم يحاول أن يتساءل لماذا كانت تفسيراتهم على هذا النحو؟ فهو بهذا قد تجرد من ثوب السوسيولوجيا واكتفى بالوصف الإثنوغرافي، وهنا مربط الفرس الذي أفلته موس.! خصوصا أنه لم يكتفي بمعايشة تلك القبائل وملاحظتها، بل كان مبهورا أيضا بالاطلاع على الآداب الرومانية والهندوسية والجرمانية كما ذكرنا سابقا، لينتقل إلى دور الباحث في اللسانيات والأدب ليعتبر أن الهدية لغة بما تحمله من رموز، وليس هذا بغريب عن موس لأنه يجيد عدة لغات من بينها الإسكندنافية لغة مجتمع البحث، فنجده مهتما بالقصائد والمقاطع الشعرية ولعل ما يفند ذلك أنه وضع كتصدير لمقالته حول الهبة مقاطع شعرية ويقول:"إليكم بعض المقاطع الشعرية من "الهفامال" إحدى أقدم القصائد الشعرية من الإدّا الاسكندنافية. إنها تصلح أن تكون تصديرا لهذا العمل، وذلك لأهميتها في وضع القارئ بشكل مباشر في جو الأفكار والوقائع التي ستجري في إطاره البرهنة على صحة ما نذهب إليه".[5]

جزر التروبرياند وأستراليا

لقد استعان **مالينوفسكي**[*] بدراسة مارسيل موس حول الهبة كأساس في دراسته لنظام **الكولا**، الذي يعني نوعا من الاتفاق والتعاقد عن طريق تبادل الهدايا بين قبائل جزر التروبرياند Trobriand في المحيط الهادي كما يمارس في بعض جزر ماليزيا واستراليا. [6] والكولا نظام شعائري تتبعه بعض القبائل الماليزيه التي تعيش في منطقة جزر واحدة تنتشر على شكل حلقة وتكون دائرة مغلقة للتبادل، وفي نطاق هذه الدائرة يتبادل الملاينزيون بعض السلع ذات القيمة اقتصادية وهي عقود من الأصداف الحمراء وأساور من الأصداف البيضاء.

فكان قبائل التروبرياند يتداولون "**فايغوا**" وهي نوع من العملة التي تنقسم إلى نوعان "**موالي**" وهي عبارة عن سوار جميل منحوت ومصقول من محار البحر ويحمله مالكه أو والداه في المناسبات الكبرى، أما النوع الثاني "**سولافا**" وهو عقد من الأصداف اللؤلؤية الحمراء، وتحمله النساء بشكل احتفالي والرجال بصفة استثنائية في حالات الاحتضار،[7] ويوضح موس بأن "**فايغوا**" مصنفة حسب الجنس فالعقود مذكر والأساور مؤنثة لذلك يميل كل منها نحو الآخر بشكل يشله التزاوج، وتسير "**سولافا**" في اتجاه عقارب الساعة-أي من الشرق إلى الغرب- بينما تسير "**موالي**" في الاتجاه المعاكس ويتم تبادل هاتين السلعتين في كل نقطة من نقاط الدائرة، ويتبع ذلك حفلات ومراسيم وطقوس وسحر، ويقوم الزائر وخاصة إذا كان من ذوي المكانة الرفيعة بتقديم هداياه من النقود، مثلا للشخص الذي اعتاد التبادل معه ويأخذ معه في مقابل ذلك بعض الأساور التي تهدى إليه نظير هديته في هذا الحفل الرسمي الكبير الذي أقامه أهل الجزيرة. والمشتركون في عملية التبادل هذه يستلمون الأشياء لفترة من الزمن ولكنهم لا يستطيعون أن يحتفظوا بها إلى الأبد، لأنه يتوجب عليهم تمريرها في خط السير المرسوم لها كما تجري العادة. [8]

وقد يذهب الرجال في رحلات **الكولا** خالي الوفاض لا يحملون أي هدايا ليقدموها إلى شركائهم، بل ليقدموا بذهابهم تذكرة بأن عليهم دين شرف قد آن أوان سداده، يتحقق النجاح في الكولا كما يظن من يمارسونها بإجراء طقوس سحرية لتهدئة الشريك وجعله يشعر بأنه كريم يستطيع أن ينتظر، والأسس التي يقوم عليها هذا التبادل المؤجل هو أن كل هدية تقدم يجب أن تساوي الهدية المستلمة، وهذا

واجب مقدم الهدية فهو الذي يجري التقديرات. ويحدث أحيانا أن يتأخر الشخص في رد الهدية المناسبة؛ ولذلك يتوجب عليه أن يقدم بعض الهدايا الصغيرة من حين لآخر حتى تتاح له فرصة تقديم الهدية المناسبة،[9] والملفت فيها ما يدل على تفكير الناس في أمور الربح والكسب والمساومة، ومع أن الكولا يصحبه أحيانا نظام مقايضة تجاري ثانوي لسلع تجارية ضرورية، وكذلك يصحبه تبادل للهدايا والخدمات إلا أن هذا التبادل التجاري ليس هو الأساس الذي تقوم عليه حلقة الكولا.

ويميز الأهالي بين الكولا والمقايضة ولذلك يعيبون أحيانا على الشخص طريقته في تبادل الكولا فيقولون أنه "يقوم بالكولا كما لو كان يقوم بعملية مقايضة "، فهذه العملية ليست عملية تجارية تقوم على المساومة أو إلى حساب أو تقدير قيمة الهدية . والمبدأ الآخر هو أن العرف والتقاليد تحتم على الرجل الذي يقبل هدية من شخص آخر أن يرد إلى المهدي ما يقابل هديته، ولكن لا يتعرض هذا الشخص لأي نوع من القهر أو القسر أو الضغط المادي لرد الهدية بمثلها [10].

ويرى مالينوفسكي أن شريك الكولا يشتري المجد كما يشتري الصداقة، فشركاؤه الذين يعيشون في جزر نائية يستطيع أن يعتبرهم حلفاء ويتوقع منهم الحماية، فالمكاسب الاجتماعية بما فيها الحصول على الشهرة والصيت هي الأساس في هذه العملية، فالتهادي في هذه الحالة يؤكد الروابط الاجتماعية والهدايا لا تعطي اعتباطاً وإنما هي تقدم لمقابلة بعض الالتزامات الاجتماعية المحددة.

هدفت الدراسة إلى تغيير تلك النظرة الضيقة لبعض علماء الاقتصاد والأنثربولوجيا حول اقتصاد المجتمعات البدائية، حيث يُعتقد أن التبادل فيها يقوم أساساً على إشباع حاجات اقتصادية وأنه مبني على الربح والكسب، ولذلك حاول مالينوفسكي إثبات أن روح السوق التي توجد في المجتمعات الغربية تنعدم في المجتمعات البدائية. فنظام التبادل في المجتمعات البسيطة– جزر التروبرياند– يعتمد أساسا على أهمية التبادل الرمزي للهدايا والتنازل عن الثروة وتجاوز ما هو مادي، وما يمكن أن يحققه من تلبية لحاجات الفرد النفسية والاجتماعية نتيجة للتوقعات والالتزامات التي يتضمنها هذا التبادل وهو ما أراد مالينوفسكي أن يعرضه.

لقد وجه انتقاد لمالينوفسكي من قبل الأنتروبولوجي البريطاني "إدموند ليتش" والذي يعتبر وظيفي على شاكلته من حيث الارتباط بالواقع الاجتماعي، فيتساءل "ليتش": لماذا حلقة الكولا مستمرة في حين أنها تكون بلا فائدة نفعية؟ ليتملص مالينوفسكي ويبرر موقفه بأنه ليس من مهمة الاثنوغرافي أن يدخل تفسيرات خاصة في مادته، ليقرر ليتش أن مالينوفسكي كان مخطئا من خلال إقناعنا بأن هذا السلوك لابد أن تكون له غاية نفعية. [11]

ولعل هذا الانتقاد يمس ويشكك في فكر مالينوفسكي بوجه عام حول **نظريته عن الثقافة، وينطلق فكره من بديهيتين رئيسيتين هما:**

- كل ثقافة بصرف النظر عن مدى تقدمها أو تخلفها يجب أن تشبع الرغبات والحاجات البيولوجية للإنسان وبذلك توجد فرصة حقيقية للاستقرار ولتقدم المجتمع.
- الاتجاه الثقافي ما هو إلا تدعيم آلي وتلقائي للفيسيولوجيا البشرية. [12]

وعلى العموم، تشير الدراسات الأنتروبولوجية لمارسيل موس ومالينوفسكي وغيرهم التي حاولت فهم آليات المعاملات الاقتصادية والتبادل داخل القبائل البدائية، فتوصلت إلى أن تبادل الهدايا شكل من أشكال التبادل الاجتماعي التي تلعب دورا مهما في الحياة الاجتماعية، فيتلخص مبدأ التبادل في إعطاء شيء مقابل شيء آخر قد يكون مكافئا أو غير مكافئ له، فهو إذن أخذ وعطاء وليس هناك تبادل بالعطاء فقط أو بالأخذ فقط، فلا يقتصر على تبادل الخيرات أو المنافع المادية بل يتعداه إلى تبادل رمزي للأفكار والمعتقدات وأنماط السلوك. وهو نفس ما يذهب إليه ابن خلدون إلى أن التبادل يجمع بين الاجتماعي والاقتصادي، وهو قيام الإنسان بتحصيل حاجاته وضروراته بدفع الأعراض عنها.

خلاصة القول أن ما تبدو عليه نظريا نظم التبادل في كثير من الثقافات الانسانية البدائية طوعية وربما تلقائية، لكن في الواقع هي ملزمة تأخذ طابع الواجب، وعلى الرغم من بساطة هذا النظام إلا أنه ينطوي على كثير من العناصر والعلاقات المتشابكة، فالمبادلة يجب أن تتم في جو يسوده الرسميات والتكلف والجد والوقار ويجب الاستعداد له بالقيام بالشعائر المختلفة. ولعل كتابتنا لعنوان ورقتنا العلمية

مصطلح نظام التبادل بدل أنظمة/نظم كانت مقصودة، لأنه وباستعراضنا لما سبق ستكتشف أن النظام منتشر ومشترك بين الثقافات المذكورة آنفا والذي يتمثل في تبادل الهدايا أو التبادل الودي على حد تعبير **كارل بولاني**، والذي يتبعه التبادل الرمزي إلا أن الاختلاف يكمن في التسمية، فلك ثقافة لغتها الخاصة ومعتقداتها.

الهوامش:

* مارسيل موس MAUSS Marcel (1972- 1950) عالم اجتماع، وانتروبولوجي فرنسي، تأثر بفكر أستاذه وقريبه إميل دوركهايم، دخل موس معترك الحياة العلمية والإنتاج المعرفي في خضم المنعطف الحاسم الذي عرفه الفكر السوسيولوجي في فرنسا المتمثل في وضع قطيعة إبستيمولوجية مع الفلسفة وانتشار الأفكار الوضعية وإمكانية دراسة المجتمع بأدوات العلوم الصحيحة. فكانت انطلاقته المبكرة في الكتابة السوسيولوجية، ومن ثم انخرط في دراسة الأديان والسحر ومورفولوجيا الحياة الاجتماعية للإسكيمو والصلاة والهبة وتقنيات الجسد، وعلاقة علم الاجتماع بالعلوم الأخرى والأسس الأخلاقية للقانون والسياسة وغيرها من المواضيع، إضافة إلى مئات التعليقات النقدية على الكتب ومختلف البحوث المنشورة، وما ساعده في ذلك معرفته لعدة لغات منها الانجليزية و الألمانية و اللاتينية والسنسكريتية و السلتية ولاسكندنافية.

إن أشهر أعمال موس و التي ساهمت بشكل كبير في إرساء أسس علمي الاجتماع والأنتروبولوجيا، هي دراسته لظاهرة "الهبة" التي ترجمت لعدة لغات أوروبية و غيرها.(أنظر: مارسيل موس، **بحث في الهبة: شكل التبادل و علته في المجتمعات القديمة**، ترجمة: المولدي الأحمر، المنظمة العربية للترجمة، ط 1، بيروت، يناير 2011، ص10 و11.)

1. مارسيل موس، **بحث في الهبة: شكل التبادل و علته في المجتمعات القديمة**، مرجع سبق ذكره ، ص13.
2. عدلي أبو طاحون، **النظريات الاجتماعية المعاصرة**، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، دون سنة، ص 401.
3. عبد الله عبد الرحمن يتيم،" **المدرسة الأنتروبولوجية الفرنسية: مارسيل موس نموذجا"**، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 6، البحرين، 2011.
4. خليل السعداني "كتاب الهبة لمارسيل موس" موقع أنتروبوس، تصفح يوم 2015/05/26، على الساعة 23:06 / - http://www.aranthropos.com/%D9%83%D8%AA%D8%A7%D8%A8
5. مارسيل موس، **مرجع سبق ذكره**، ص31.

* ولد الأنتروبولوجي البريطاني سنة 1884 بمدينة كاراكاو KRAKOW في بولندا، وحصل على درجة الدكتوراه في الطبيعة والرياضيات 1908، ولكنه تحولت اهتماماته إثر قراءاته لكتابات السير جيمس فريزر "FRAZER" ليسافر إلى إنجلترا 1910 ليتتلمذ على يد وسترمارك وغيره من خيرة العلماء. وفي سنة 1922 قام بنشر دراسته الشهيرة المذكورة أعلاه عن جزر التروبرياند في شرق غينيا الجديدة، ويصبح بذلك من أهم رواد الأنتروبولوجيا الوظيفية.(أنظر: محمود أبو زيد، **أعلام الفكر الاجتماعي والانتروبولوجي الغربي المعاصر**،ج2، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2007، ص131).

6. محمود أبو زيد، **نفس المرجع**، ص 140.
7. مارسيل موس، **مرجع سبق ذكره**، ص252-253.
8. علياء شكري وآخرون، **دراسات في علم الاجتماع الاقتصادي والتنمية الاجتماعية**، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1991، ص59.
9. طالبات قسم الاجتماع، **الهدية كشكل من أشكال العلاقات الاجتماعية: دراسة استطلاعية**، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، 1421هـ، ص6.
10. علياء شكري وآخرون، **مرجع سبق ذكره**، ص60.
11. ربيع كردي، **البنائية الجديدة في علم الاجتماع والانتروبولوجيا**، ط1، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011، ص 20.
12. محمود أبو زيد، **مرجع سبق ذكره**، ص 131.